المحاضرة 01/02: مدخل إلى البلاغة

كان عربُ الجاهلية متمكنين من لغتهم وبلغوا فيها شأناً بعيداً، والبلاغة متصلة اتصالاً وثيقاً باللغة والأدب والنقد، فقلَّ أن يخلو من الإشارات إلى موضوعاتها كتابٌ في اللغة أو الأدب أو النقد. ورغم تعدد الدراسات اللغوية الخاصة بالبلاغة، إلاَّ أنَّها تشترك كّلها في إطار عام وهو الإطار التواصلي، إذ يحاول الباحثون تحديد فعل التواصل، وكيفية حدوثه، والاستراتيجيات التي يوظفها المرسل للتواصل مع الآخرين، وذلك انطلاقًا من أن التواصل نشاط اجتماعي يتم بين طرفين أو أكثر، وحتى بين الفرد وذاته.

كما لا يخفى علينا أن البلاغة العربية بذلت جهودا جبارة في دراسة اللغة وهي تؤدي وظيفتها الأساسية في المجتمع عن طريق اللغة العادية أو اللغة الأدبية الموجهة إلى طبقة معينة، وذلك عن طريق اعتنائهم بالبلاغة وعلومها (البيان، البديع، المعاني) إذ يرون بأن معرفة الإنسان بها تكفل صحة العملية التواصلية. وسنحاول التعرف على البلاغة وبعض المصطلحات ذات الصلة فيما يلي:

1. مفهوم كل من الفصاحة/الخطابة/ البلاغة:

أولا: الفصاحة

الفصاحة لغة: البيان والظهور؛ فصح الرجل فصاحة فهو فصيح... تقول: رجل فصيح

وكلام فصيح أي بليغ، ولسان فصيح أي طلق... وفصُح الأعجمي، فصاحة: تكلم بالعربية وفُهِم عنه...

اصطلاحا: هي فصاحة الكلمة، أي لا نستعمل الكلمات التي لا نفهم معناها لكي يكون الكلام فصيحا يجب أن يخلو من العيوب. فهي قدرة المتكلم على إيصال المعنى والمشاعر.

والفصاحة تقع وصفا أو يوصف بها المفرد اللفظ أو الكلمة والكلام والمتكلم، فيقال: لفظة فصيحة، وكلام فصيح، ورجل فصيح. أما البلاغة فيوصف بها الكلام والمتكلم فقط، فيقال: كلام بليغ، ورجل بليغ.

ثانيا: تعريف الخطابة"

جاء في الخطابة الكثير من التعريفات، ومن أقدمها وأولها تعريف أرسطو، الذي عرف الخطابة بأنها قوة تنطوي بإقناع الناس ما أمكن في جميع أنواع الأمور. والخطابة هي نوع من أنواع المحادثات التي ترتبط ارتباط وثيق بالجمهور الذي يقوم بسماعها، والذي يتأثر بها، لذلك كان من اشمل التعريفات وأكملها للخطابة هو أن الخطابة هي فن مخاطبة الجماهير للتأثير عليهم واستمالتهم. فالخطابة هي فن يقوم بشكل رئيسي على التحدث بصورة شفهية مع المستمعين واستمالتهم وإقناعهم لما يقال.

وبذلك يمكن القول إن من أساسيات الخطابة هي المشافهة، وتواجد جمهور مستمع، ولابد من توفير عنصري استمالة وإقناع الجمهور، ويجب للخطيب من أن يقوم بتوضيح رأيه للجمهور ويقوم بإقناعهم به. كما أن على الخطيب أن يقوم بتقديم البراهين والأدلة التي تثبت ما يقوله، أما الاستمالة فالمقصود بها إما تهدئة نفوس الجمهور السامع وإما تهيجهم نحو ما يقال، ولابد على الخطيب أن يمسك بجميع زمام الأمور ويكون قادر على التصرف بعواطف المستمعين كيفما يشاء، وفن الخطابة هو الفعل الذي ينطوي بممارسة الخطابة بذاتها .

ثالثا: تعريف البلاغة:

تعُرّف البلاغة لغةً: حسب ما ورد في المعاجم اللغويةّ بأنّها مصدرٌ مشتق من الجذر الثلاثي(بلغَ) بمعنى وصل، وهي تعني أيضا التحدث بلغةٍ تتصف بالفصاحة والقوة بما يتلاءم مع واقع الحال.

إذن البلاغة في اللغة: الوصول والانتهاء، يقال: بلغَ الشيءُ، يبلُغُ بلُوغًا وبلاغا وصل وانتهى... وتبَلَّغَ بالشيء: وصل إلى مراده.. والبلاغ : ما يُتَبَلَّغُ به ويُتوَصّل إلى

الشيء المطلوب، والبلاغ : ما بلغَكَ . والبلاغ : الكفاية ... والإبلاغ : الإيصال، وكذلك التبليغ، والإسم منه البلاغ ... وبلغتُ المكان بلُوغا: وصلتُ إليه، وكذلك إذا شارفت عليه.

أمّا معناها **الاصطلاحيّ** فهي مجموعة من القيّم الجماليّة، والقواعد الفنيّة التي يمكن من خلالها الحكم على النصوص الأدبيّة من ناحية التميّز والجودة أو الضعف والرداءة، ولقد وردت عن علماء اللغة أقوالٌ متنوّعة في تعريف البلاغة، وكان من أبرزها قول الجاحظ الذي عرّف البلاغة في كتابه)البيان والتّبيين(بأنّها: "الإيجاز في غير عَجْز، والإطناب في غيْر خَطّل.."، وقال أيضا: " إنّ الكلام لا يستحق اسم البلاغة حتى يسبق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى السمع أسبق من معناه إلى القلب"، وإشارة أبي هلال العسكري في كتابه "الصناعتينْ " إلى ضرورة معرفة علم البلاغة حتى يتمكّن الكاتب من فهم إعجاز القرآن الكريم الذي امتاز بخصائص فنيةّ عدّة كان من أهمها: قوة التراكيب، وجماليّة التأليف، أضف إلى ذلك ما خصه الله تعالى به من فن الإيجاز.

من هنا يلاحظ أن البلاغة في الاصطلاح يختلف معناها باختلاف موصوفها، وهو الكلام والمتكلم، يقال: هذا كلام بليغ، وهذا متكلم بليغ، ولا توصف بها الكلمة فلا يقال: هذه كلمة بليغة.

ما يوصف بالبلاغة:

- **بلاغة الكلام:** البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحة ألفاظه مفردها ومركبها. والحال) المقام): هو الأمر الذي يحمل المتكلم على أن يورد كلامه في صورة خاصة؛ فالمدح مثلا حال يدعو لإيرادها على صورة الإطناب، وذكاء المُخاطَب حالٌ يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز، فكل من المدح والذكاء حال ومقام، وكل من الإطناب والإيجاز مقتضى، ومقتضى الحال: هو تلك الصورة الخاصة التي ورد عليها كلام المتكلم. وإيراد الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز مطابقة للمقتضى.

فالبلاغة لا بد فيها من ذوقٍ وذكاءٍ، بحيث يدركُ المتكلم متى يتكلّم، ومتى ينتهي، وما القوالب التي تُصَبُّ فيها المعاني التي رتبها في نفسه.

- **بلاغة المتكلم:** هي ملكة أو صفة قائمة في نفسه، راسخة فيه، يستطيع به أن يؤلف كلاما بليغا في أي غرض يريدهُ، ويلاحظ أن البليغ يحتاج إلى:

أ – الطبع والموهبة، والذهن الثاقب، والخيال الخصب، وهذه صفات خَلْقيّة.

ب – الثقافة اللغوية والنحويّة، ومعرفة أحوال النفوس البشرية وطبائعها، والإلمام بما يحيط به من البيئة الطبيعية والاجتماعية، وهذه صفات مكتسبة .

وعليه فإن البلاغة فنٌّ قولي يعتمد على الموهبة وصفاء الاستعداد، ودقة إدراك الجمال، وتبين الفروق الخفية بين شتى الأساليب، ولابد لطالب البلاغة من أمرين: قراءة عميقة متصلة لروائع الأدب وحفظ ما يستجيدهُ منه، وعلى التعبير من وقت لآخر عن بعض ما يجول في الخاطر.

2. أهمية دراسة علم البلاغة

لدراسة البلاغة أهمية كبيرة في حياتنا وفي مجالات متعددة ومتنوعة في الكون، ومن أهم فوائدها:

- ✓ تساعد البلاغة على معرفة معاني القرآن، وأسرار التعبير فيه، والوجوه المحتملة لجمله وتراكيبه؛
- ✓ تساعد على اختيار النصوص البليغة من الشعر والنثر وغيرها من أضرب الكلام؛
- ✓ تنمي القدرة على تمييز الكلام الحسن من الرديء؛
- ✓ تساعد المتكلم على صياغة كلامه وفقاً للمناسبة، وتعين القارئ على إدراك جمال أو قبح ما يقرأ، وتعطي الناقد آلات النقد وأحكامه؛
- ✓ إدراك وفهم الجمل التي يتم قراءتها؛
- ✓ القدرة على انتقاد النصوص الأدبية بطريقة صحيحة وخالية من الأخطاء.

3. عناصر البلاغة:

يمكننا ذكر العناصر التالية:

- الحرص على الإتيان بالقواعد النّحويّة والصّرفيّة على أكمل وجه مع حُسن اختيار المفردات الفصيحة لها؛
- الابتعاد عن الخطأ في إيراد المعنى؛
- الابتعاد عن أيّ تعقيد لفظيّ أو معنويّ لا يُوصل إلى المعنى المقصود؛
- حُسن اختيار المفردات التي تحمل حِسا وجمالا ؛
- انتقاء الجميل من المقاصد والمعاني وترجمتها من خلال ألفاظ تحمل طابعا جماليّا؛
- تدعيم الكلام من خلال استخدام المحسّنات البديعيّة التي تُزيّنه وتجذب المتلقي,

4. نشأة علم البلاغة

استقرّ علم البلاغة على يديّ أبي يعقوب السكاكي ومدرسته، ولم يطرأ أي تغيير أو تطوّر عليه منذ بداية القرن السابع الهجري، وقد شمل هذا الاستقرار العلوم الثلاثة التي كانت مرتبطة به، وهي: علم البيان، وعلم البديع، وعلم المعاني، وأيضا الفنون الأخرى التي تفرّعت عن هذه العلوم، إضافة إلى مناهج البحث البلاغي والأساليب البلاغيةّ التي كانت تنهج النهج نفسه الذي أسسه السكاكي وسار عليه تلاميذه من بعده، ومن الجدير بالذكر أنّ التطوّر الوحيد الذي طرأ على علوم البلاغة في تلك الفترة هو استحداث فنون أخرى من الفنون التي تنتمي إلى علوم البلاغة الثلاثة، وخاصة علم البديع الذي نتجّ عنه فروع عدّة.

كانت البلاغة العربية قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه من حالة الثبات والاستقرار قد مرّت بفترة زمنيّة طويلة استغرقت أربعة قرون، فقد نشأت في بداية القرن الثالث الهجري، وكانت ملامحها في البداية بسيطة ومتواضعة وفي الوقت نفسه تابعة للعلوم الأخرى، وفي نهاية الأمر تبلوّرت هذه الملامح واتضّحت معالمها وأصبحت تشكّل عِلما مستقلا له مؤلفاته التي تتبنى القضايا الخاصة به، وقد مرّت البلاغة خلال هذه الفترة

بثلاث مراحل لكن كان من الصعوبة تحديد بداية ونهاية كل مرحلة بشكل دقيق؛ مما أدّى إلى تداخلها مع بعضها بعضا إلى الحدّ الذي جعل بداية مرحلة من المراحل تختلط بنهاية المرحلة التي سبقتها، وأحيانا نجد في واحدة منها بعض المؤلفات التي تندرج في سماتّ المرحلة التي سبقتها، ورغم هذا يبقى لكل مرحلة خصائصها العامة الرئيسية ونتاجها العلمي الواسع، ونوجز هذه المراحل كالتالي:

- **مرحلة النشأة على هامش العلوم الأخرى:** في هذه المرحلة لم تكن ملامح البلاغة واضحة تماماً، ولم يكن لها القدرة على تبني مسائل وقضايا كاملة، إنما كانت عبارة عن ملاحظات وأفكار منتشرة داخل مصنفات العلوم الأخرى التي سبقتها في النشأة .
- **مرحلة التكامل المشترك:** في هذه المرحلة أخذت البلاغة شكلا آخر حيث أصبحت الأفكار والملاحظات التي رافقت المرحلة الأولى تتضجّ وتنمو وتتعمّق في ثنايا كتب العلوم الأخرى، لتتحوّل بعد ذلك إلى فصول كاملة، لكنها لا زالت مختلطة بهذه المؤلفات ولم يكن لها كتبٌ خاصة بها .
- **مرحلة الاستقرار والتفرّد:** هي المرحلة الأخيرة وفيها اتخذت البلاغة صيغة محددّة اتسمّت بوضوح المعالم وبشكل نهائي؛ حيث أصبحت عِلمًا مستقلا له مؤلفاته الخاصّة، وبهذا استطاعت البلاغة التحرّر والانفكاك من ثنايا مؤلفات العلوم الأخرى.